

من حرسنا القلبي

لبعض القراء ملاحظات تدل أحياناً على جهل مروع بطبيعة الأدب . من ذلك أنهم يميزون على الأدب محدثه عن نفسه . أمثال هؤلاء القراء لا بد أن يكونوا من تلاميذ المدارس أو المتخرجين فيها حديثاً . فهم يخلطون بين « معلم المدرسة » وبين « الأدب الفنان » . فهمة « المعلم » الأولية أن يلقن أصول المعارف وأن يفرغ في أذهان النشء مادة بعينها بغير أن يكون لشخصه دخل في الأمر . أما « الأدب أو الفنان » فلا يلقن شيئاً ولا يبني له . لأنه يخاطب قوماً مفروضاً فيهم أنهم قد جاوزوا مراحل الدرس ؛ فهو يخرج لهم عصارة العلوم والمعارف والتجارب مقطرة من خلال « نفسه » . إن كل ما نطلبه و نرجوه من رجال الأدب والفن أن يحدثونا عن كل خلجة من خلجات نفوسهم ، وكل دقيقة من دقائق حياتهم ، وكل لحظة من لحظات أبحارهم ، وكل ناحية من نواحي إحساسهم . إن « نفس » الأدب العارية هي كل ما يبني له أن يضمه تحت أنظارنا . ومن لم يفعل ذلك فليس مطلقاً بأديب . فالأديب هو الآدبي الوحيد الذي خلق لكي يفتح لنا نفسه لنرى من خلالها النفس البشرية قاطبة . ويتحدث لنا عن نفسه فترى من خلال حديثه كل تجارب الإنسانية الشاعرة . وإن كل رجال الأدب العظام ليسوا إلا آدميين حدثونا طول حياتهم عن أنفسهم ، بوسائل شتى . وأنا كفارء لا يروني شيء مثل قراءة المذكرات التي يكتبها الأدباء والعظماء عن حياتهم الخاصة . والاعترافات والرسائل التي تتناول مسائل تمس أشخاصهم . فنحن في تلك الكتابات المجردة عن أنوار التكلف والصناعة نستطيع أن نهبط إلى أغوار تلك النفوس الرجة الفنية ، كما نهبط النواص لجأة إلى أعماق البحار ، فيفاجئنا اللائء في أصدافها لم تمسها بعد يد غريبة ، تنزعها لتدخل عليها بهرج الصاغة . إن الفنان إذ يحدثنا عن نفسه وفنه وحياته الخاصة إنما يقدم لنا مادة فنية غير مصنوعة . إنه يترك رداءه الرسمي ليخرج إلينا بثياب البيت في غير كلفة كأنه صديق ، وهذا متتهى الاخلاص منه ومتتهى التكريم لنا ؟

توفيق الحكيم

ثم سأل : « ولكن الوفده هو أيضاً مقترحاته للسمو بالجليل الحديث ونحويل جهوده . أليس كذلك ؟ فقد سمعت بالصناية المبذولة في الألعاب وضروب الرياضة »

قال الباشا : نعم . إلا أن النظام الحاضر يجعل باله قبل كل شيء إلى إنجاب « الأبطال » الذين يحرزون الجوائز في المباريات الدولية ولا يملأ الجمهور نصيبه من الرعاية ، ولا يلتفت إلى الأخلاق كما يلتفت إلى الأبدان . وما كان التعليم التجبه إلى إحياء الحاسة المدنية الاجتماعية يوماً من الأيام شاغلاً بنفع الأحزاب السياسية في غايها من النعاية ، فلا سبيل إلى هذا التعليل إلا على أيدي حكومة غير حزبية أو حكومة قومية »

أما أحمد حسنين باشا فقد بدأ الكلام معه على تعليم صاحب الجلالة الملك فاروق . ثم استطرد إلى السباحة الدينية ومذهب الباشا فيها ، وهو مذهب يشبه مذهب محي الدين بن العربي . وقد كانت لرحلاته في الصحراء يد قوية في هدايته إلى تلك الطريق الروحية

سأله الأستاذ لاندو : لقد أخبرت أن الملك يؤدي جميع فروض الصلاة بانتظام ، فهل تعتقد أن صاحب الجلالة ذو سليفة دينية ؟

فقال الباشا : « أعتقد ذلك . وقد قال لي منذ أيام جأة خلال الحديث : إنه يشعر براحة حقيقية في الصلاة . وهذا شيء جدير بالتنويه والملاحظة من شاب يقوم بأعباء الملك في سن الفتوة ، ولا سيما وصاحب الجلالة غير مطبوع على الانزواء أو الخيالات العاطفية ، ولكنه نشيط إلى الرياضة لا يميل إلى النزعات الخفية الغامضة ، وهو يحمل مصحفاً صغيراً لا يفارقه ؛ وأعلم أنه شديد الحب له والإيمان به »

وسنعود في المقال التالي إلى التعقيب على أمثال هذه المباحث التي يتصدى لها بعض السامعين ، وإلى بيان الحقيقة فيما يلمحونه أو يخيل إليهم أنهم يلمحونه من دلائل الحياة الروحية وبواعث التغير والتجديد فيها .

عباس محمود العقاد